الفصل الثالث

الكُتَّاب

ابن المقفع

(المتوفى سنة 142 هجرية)

نشأته وحياته

عبد الله ابن المقفع كاتب فارسي الأصل عربي النشأة. ولد حوالي سنة ست ومائة للهجرة، ونشأ بالبصرة على ما ينشأ عليه أبناء اليسار، وكان والده داذويه المجوسي يتولى خراج فارس للحجاج ابن يوسف، فاحتجن من مال السلطان شيئاً، فضر به الحجاج حتى تقفعت يده فلقب بالمقفع. وربى عبد الله منذ طفولته على النمط الإسلامي، وأولع بالعلى وهو فارغ القلب من هموم العيش، فنبغ وهو يافع في الكتابة باللغتين الفارسية والعربية، فاستكتبه في عهد بني أمية داود ابن عمر ابن هبيرة، وفي بني العباس عيسى ابن علي عم المنصور، وعلى يديه أسلم. قال له ذات يوم: " قد دخل الإسلام في قلبي وأريد أن أسلم على يدك " فطلب إليه عيسى أن يغدو عليه بين القواد ورءوس الأجناد ليكون إسلامه مشهوداً. ثم حضر معه المائدة عشية ذلك اليوم فجعل يأكل ويزمزم على عادة المجوس. فلما كلمه عيسى في ذلك قال ك " كرهت أن أبيت على غير دين " ثم غدا عليه فأعل إسلامه، وتسمى عبد الله واكتنى أبا محمد، وقد كان اسمه من قبل روزبة.

وقد قيل إنه اسلم ابتغاء عرض الدنيا. ورمى بالإلحاد لمعارضته القرآن، وترجمته كتب الزنادقة، وتمثله حينما مر على بيت نار للمجوس ببيتي الأحوص:

يا بيت عاتكة الذي أتعزل حذر العدى وبه الفؤاد موكل

إني لأمنحك الصدود وإنني قسما إليك مع الصدود لأميل

وبقى ابن المقفع في خدمة عمي المنصور عيسى وسليمان حتى كانت حادثة الأمان الذي كلف أن يكتبه عن لسان المنصور لعمه عبد الله، فإنه تشدد فيه على الخليفة بمثل قوله: " ومتى غدر المؤمنين بعمه عبد الله فنساؤه طوالق، ودوا به حبس، وعبيده أحرار، والمسلمون في حلٍ من بيعته " فوجد المنصور عليه وأوغر بقتله إلى سفيان ابن معاوية المهلبي أمير البصرة، وكان يضطغن على ابن المقفع لسخره منه واستخفافه به في حضرة وجوه البصرة. فقد قالوا إنه كان كبير الأنف، فكان كلما دخل عليه ابن المقفع قال: (السلام عليكما) يعني سفيان وأنفه. فاهتبل الأمير هذه الفرصة وقتله حرقاً بالنار بالغاً من العمر ستاً وثلاثين سنة.

أخلاقه وعلمه

كان ابن المقفع ذكي القلب فصيح المنطق ضليعاً في أدب العرب والفرس " مقدماً [1] في بلاغة اللسان والقلم والترجمة واختراع المعاني وابتداع السير. وكان يتعاطى الكلام [2] ولا يحسن منه لا قليلاً ولا كثيراً ".

وقد قيل: لم يكن للعرب بعد لصحابة أذكى من الخليل، ولا كان في العجم أذكى من ابن المقفع. وقد اجتمع هذان الصديقان لأول مرة. فمكثا يتحدثان ثلاثة أيام ثم افترقا فقيل للخليل كيف رأيت عبد الله؟ فقال ما شئت من علم وأدب! إلا أن عقله أكثر من علمه. وقد سئل ابن المقفع: من أدبك؟ فقال نفسي: كنت إذا رأيت من غيري حسناً أتيته، وإن رأيت قبيحاً أبيته. وكان في سائر أحواله عفيفاً أديباً وفياً لأصحابه. وأمره [3] مع عبد الحميد الكاتب شهيد بذلك.

---

(1) هذا رأي الجاحظ فيه من رسالته في المعلمين.

(2) علم التوحيد.

(3) قد مر بسط ذلك في ترجمة عبد الحميد ابن يحيى الكاتب.

نثره وشعره

ابن المقفع إمام الطبقة الأولى من الكُتاب. وقد استخلص من الأسلوب الفارسي والعربي في الكتابة عرفت به وأخذت عنه. وقد فصلنا ذلك في أثناء كلامنا عن النثر في هذا العصر فارجع إليه. أما شعره فقليل جيد، روى صاحب الحماسة منه قوله في رثاء يحيى بن زياد:

رُزِئْنا أبا عمر ولا حيَّ مثله ... فلله ريب الحادثات بمن وقع!

فإن تك قد فارقتنا وتركتنا ... ذوي خلة ما في انسداد لها طمع

فقد جر نفعاً فقدنا لك أننا ... أمنا على كل الرزايا من الجزع

مترجماته ومؤلفاته

ابن المقفع مترجم قدير لا تلمح في ترجمته أثر العجمة، وتكاد لا تفرق بين نقله ووضعه. وكتابه كليلة [1] ودمنة إذا صح أنه مترجم لا يزال مثالاً للترجمة الصحيحة البليغة. وهو كما قال القفطي أول من اعتنى في الملة الإسلامية بترجمة الكتب المنطقية لأبي جعفر المنصور، فترجم كتب أرسطو الثلاثة في المنطق. وكتاب إيساغوجي لفرفرويوس الصوري؛ نقلها عن ترجمة بالفارسية لأنه لم يعرف غيرها على الأرجح: ونقل كتاب التاج في سيرة أنوشروان. وألف كتابي الأدب الصغير والكبير في الأخلاق، وكتاب اليتيمة في طاعة السلطان.

نموذج من نثره

قال: لا يؤمننَّك شرَّ الجاهل قرابة ولا جوار ولا إلف، فإن أخوف ما يكون الإنسان لحريق النار أقرب ما يكون منها. وكذلك الجاهل إن جاورك أنصبك، وإن ناسبك جنى عليك، وإن ألفك حمل عليم ما لا تطيق، وإن عاشرك آذاك وأخافك؛ مع أنه عند الجوع سبع ضار، وعند الشبع ملك فظ، وعند الموافقة

---

(1) انظر ما كتب عن كليلة ودمنة في باب الكلام عن القصص.

في الدين قائد إلى جهنم: فأنت بالهرب منه أحق منك بالهرب من سم الأساود، والحريق المخوف، والدين الفادح، والداء العياء ".

وقال أيضاً: " إن استطعت أن تنزل نفسك دون غايتك في كل مجلس ومقام ومقال ورأي وفعل وفاعل. فإن رفع الناس إياك فوق المنزلة التي تحط إليها نفسك، وتقريبهم إياك في المجلس الذي تباعدت عنه، وتعظيمهم من أمرك ما لم تعظم، وتزيينهم من كلامك ما لم تزين، هو الجمال ".

وقال أيضاً. كان لي أخ أعظم الناس في عيني. وكان رأس ما عظمه في عيني صغر الدنيا في عينه. كان خارجاً من سلطان بطنه، فلا يشتهي ما لا يجد ولا يكثر إذا وجد. وكان خارجاً من سلطان لسانه، فلا يتكلم بما لا يعلم، ولا يماري فيما علم. وكان خارجاً من سلطان الجهالة، فلا يتقدم أبداً إلا على ثقة بمنفعة. وكان أكثر دهره صامتاً، فإذا قال بذ القائلين. وكان ضعيفاً مستضعفاً، فإذا جد الجد فهو الليث عادياً. وكان لا يدخل في دعوى، ولا يشارك في مراء، ولا يدلى بحجة حتى قاضياً فهماً وشهوداً عدولاً. وكان لا يلوم أحداً فيما يكون العذر في مثله حتى يعلم ما عذره. وكان لا يشكو وجعه إلا عند من يرجو عنده البرء، ولا يستشير صاحباً إلا أن يرجو منه النصيحة. وكان لا يتبرم ولا يتسخط ولا يشتكي ولا يتشهى، ولا ينتقم من العدو ولا يغفل عن الولي، ولا يخص نفسه بشيء دون إخوانه من اهتمامه وحيلته وقوته.

فعليك بهذه الأخلاق إن أطقتها، ولن تطيق، ولكن أخذ القليل خير من ترك الجميع.

الجاحظ

(المتوفى سنة 255 هجرية)

نشأته وحياته

ولد أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ بالبصرة ونشأ بها وهي يومئذ مهد العلم ومنتدى الأدب، فأكب على الدرس وجد في التحصيل وأخذ عن جهابذة اللغة والرواية كالأصمعي وأبي عبيدة وتخرج في علم الكلام على أبي إسحاق النظام أحد المعتزلة فأخذ بمقالته، ونصر الاعتزال بكتابته. وصاحب فئة من كتاب العرب ومترجمي الفرس فنقل عنهم واستفاد منهم، وأغرم بالمطالعة إغراماً شديداً فلم يقع في يده كتاب إلا استتم قراءته، واستوعب مادته. وكان يكترى حوانيت الوراقين ويعتكف فيها للدرس والمطالعة حتى أحصى مسائل العلوم، واستبطن دخائل الفنون، وأصبح منقطع القرين.

قضى أكثر عمره في مسقط رأسه عاكفاً على التأليف مرعى الجانب، مكفي الحاجة، أثيراً لدى الولاة، مكرماً عند الوجوه، بما يؤلف من الرسائل ويصنف من الكتب. ثم كان ينتجع بغداد في عهد المأمون والمعتصم والواثق والمتوكل؛ وانقطع بعد ذلك إلى محمد ابن عبد الملك الزيات طول وزاراته الثلاث؛ ثم استقر بالبصرة بعد نكبة الوزير. وأصيب بالفالج النصفي في عاقبة عمره. وطال عليه المرض وتبلغت به العلة حتى قبضه الله إليه سنة خمسة وخمسين ومائتين وقد شارف المائة.

صفاته وأخلاقه

كان أبو عثمان دميم الخلقة جهم الوجه جاحظ العينين " ومن ذلك لقبه "؛ حتى قيل إن الخليفة المتوكل سمع بمنزلته من العلم والفهم فاستقدمه غليه بسر من رأى ليؤدب ولده. فلما رآه استبشع منظره وصرفه بعشرة آلاف درهم. وكان في الجاحظ دعابة ومجانة واستخفاف بالعادات لمرعية والآداب الوضعية، ولكنه كان لطيف الروح ذكي الفؤاد فكه المحاضرة صادق المواساة.

علمه وأدبه

ليس في مقدور هذا القلم العاجز الموجز أن يصف للقارئ ما لنابغة العرب وفُولتير الشرق من الأثر في الأدب. وبحسبنا أن نقول إنه تميز من أنداده بغزارة العلم، وقوة الحجة، واستقصاء البحث، وشدة المعارضة، وبلاغة القول، وإنه تبحر في علم الكلام وخلطه بفلسفة يونان، وانفرد دون المتكلمين بمذهب في التوحيد شايعه عليه كثير منهم فسموا بالجاحظية. وشارك في سائر العلوم وكتب فيها كتابة محقق ضليع. وهو أول عالم عربي جمع بين الجد والهزل، وتوسع في المحاضرات وأكثر من التصنيف وكتب في الحيوان والنبات والأخلاق والاجتماع.

نثره وشعره

نقل الجاحظ الكتابة إلى طور جديد في الأسلوب والغرض، ونهج للمترسلين والمصنفين طريقة في الإنشاد ذكرناها في معرض الكلام عن الكتابة فلا نعيد فيها القول. وقد قال فيه البديع: إن كلامه بعيد الإشارة، قريب العبارة قليل الاستعارة. وهذا الحكم وإن كان شديد يطابق الحق أحياناً. أما شعره فلا روعة ولا جمال فيه. وقد نزع في نظمه إلى الإتباع لا إلى الابتداع، وهو قليل منثور في ثنايا الرسائل والكتب كقوله للوزير أين عبد الملك:

بدا حين أثرى لإخوانه ... ففلل منهم شاة العدم

وأبصر كيف انتقال الزمان ... فبادر بالعرف قبل الندم

وقوله:

لئن قُدَّمتْ قبلي رجالٌ فطالما ... مشيت على رِسْلي فكنتُ المقدما

ولكن هذا الدهر تأتي صروفه ... فتبرم منقوضاً وتنقض مبرما

مؤلفاته

كتب الجاحظ تربى على مائتي كتاب، وهي كما قل الأستاذ ابن العميد؛ "تعلم العقل أولاً والأدب ثانياً " ولم ينشر منها إلا كتاب البيان والتبيين في

الأدب والإنشاء والخطابة، وكتاب الحيوان هو أقدم كتاب عربي في موضوعه، وكتاب المحاسن والأضداد، وكتاب البخلاء، وديوان رسائله.

مثال من نثره

قال يعاتب صديقاً له. " والله يا قليب لولا أن كبدي في هواك مقروحة، وروحي بك مجروحة، لساجلتك هذه القطيعة، ومامددتك حبل المصارمة، وأرجو الله أن يديل صبري من جفائك، فيردك إلى مودتي وأنف القلى راغم؛ فقد طال العهد بالاجتماع، حتى كدنا نتناكر عند اللقاء.

وقال في رسالة التربيع والتدوير وهي من أبلغ رسائله:

قد اعتدنا في معصيتك والخلاف على محبتك، مرة بالمزاح، ومرة بالنسيان، ومرة بالاتكال على عفوك. وعلى ما هو أولى بك. والجملة أنا لو اعتمدنا، ثم أصررنا، ثم أنكرنا، لكان في فضلك ما يتغمده، وفي كرمك ما يوجب التغافل عنه. فكيف وإنما سهونا ثم تذكرنا، واعتذرنا ثم أطنبنا؟ فإن تقبل فحظك أصبت، ولنفسك نظرت. وإن لم تقبل فاجهد جهدك، ولا أبقى الله عليك إن أبقيت، ولا عفا عنك إن عفوت. وأقول كما قال أخو بني منقر:

فما بُقْيَا على تركتماني ولكن خفتما صدَر النبال

والله لئن رميتني ببجيلة لأرمينك بكنانة. ولئن نهضت بصالح ابن علي لأنهضن بإسماعيل ابن علي. ولئن صلت علي بسليمان ابن وهب لأدمعتك بالحسن ابن وهب. وأنا أرى لك أن تقبل العافية، وترغب إلى الله تعالى في السلامة. واحذر البغي فإن مصرعه وخيم، واتق الظلم فإن مرعاه وبيل. وإياك أن تتعرض لجرير إذا هجا، وللفرزدق إذا فخر، ولهرثمة إذا دبر، ولقيس ابن زهير إذا مكر، وللأغلب إذا كر، ولطاهر إذا صال. ومن عرف قدره عرف قدر خصمه، ومن جهل نفسه لم يعرف قدر غيره. وعليك بالجادة ودع البينات. فإن ذلك أمثل لك. وأنت والله تعلم علم الاضطرار، وعلم الاختيار، وعلم الأخبار، أني أظهر منك حرباً، وألطف كيداً، وأكثر علماً، وأوزن حلماً، وأخف روجحاً، وأكرم عيناً، وأقل غشاً، وأحسن قداً، وأبعد غروراً، وأجمل وجهاً، وأنصع ظرفاً، وأكثر ملحاً، وأنطق لساناً، وأحسن بياناً، وأجهر جهارة، وأحسن شارة، وأنت

رجل تشذ من العلم، وتنتف من الأخبار، وتموه نفسك، وتعز من قدرك، وتتهيأ بالثياب، وتتنبل بالمراكب، وتتحبب بحسن اللقاء؛ ليس عندك إلا ذاك. فلم تزاحم البحر بالجداول، والأجسام بالأعراض، ومالا يتناهى بالجزء الذي لا يتجزأ؟ ومن يعدل بين القناة والكرة؟ وبين رحى الطحان وبين سيف يمان؟ وإنما يكون التمثيل بين أتم الخيرين، وأنقص الشرين، وبين المتقاربين دون المتفاوتين. فأما الخل والعسل، والحصاة والجبل، والسم والغذاء، والفقر والغنى، فهذا مما لا يخطئ فيه الذهن، ولا يكذب فيه الحسن.

ابن العميد

(المتوفى سنة 360 هـ)

نشأته وحياته

أبو الفضل محمد بن الحسين المعروف بابن العميد فارسي الأصل من أهل مدينة (قم). كان أبوه مترسلا بليغاً يتولى الكتابة لنوح ابن نصر الساماني ملك بخارى، فنشَّأه على الأدب ودربه في الكتابة، وغذاه بالعلم، فبرع في الإنشاء والترسل، وتوسع في الفلسفة والنجوم، حتى سمى بالأستاذ ولقب بالجاحظ الثاني.

ولما استكملت عدته، واستحصدت قوته، غادر بخاري إلى بلاد الجبل من ملك آل بويه؛ فتقلد الأعمال في دولتهم. وما زال يتنقل في مدارج الرقي، ويتوقل في معارج الشرف، حتى وزر لركن الدولة ابن بويه سنة ثماني وعشرين وثلاثمائة، فاضطلع بأعباء الوزارة، وقام بشئون الدولة، وجرى منهاج بني برمك في الجود، فانتجعه الشعراء وقصده العلماء من بغداد والشام ومصر فكان هو والصاحب ابن عباد والوزير المهلبي روحاً لنهضة العلم وقطبا لدائرة الأدب في ذلك العصر. وقد كان المتنبي على مكانته يجله ويتهيّبه، وله فيه مدائح مشهورة منها قصيدته التي مطلعها:

بادٍ هواك صربت أم لم تصبرا وبكاك إن لم يجر دمعك أو جرى

ويقول فيها:

من مبلغ الأعراب أني بعدها شاهدت رَسْطاليس والإسكندرا

ومللت نحر عشارها فأضافني من ينحدر البدر النضار لمن قرى

وسمعت بطليموس دارس كتبه متملكاً متبدياً متحضراً

ولقيت كل الفاضلين كأنما رد الإله نفوسهم والأعصر

ولكن ابن العميد كان قليل الحظ من العافية ألحَّت عليه الأوصاب وتناوبه القُولنج والنِّقْرِس حتى استعز الله به سنة ستين وثلاثمائة.

نثره وشعره

عصر ابن العميد عصر تأنق وزخرف، وعهد خيال وشعر، فهداه طبعه إلى استحداث أسلوب جديد متناسب الفقر أنيق الديباجة، بديع الوشى، طبع على غراره مشايعوه لموافقته ذوق العصر. ولمكانة الوزير من الفضل. إلا أنه كان أرق معاصريه طبعاً، واقلهم سجعا، وأكثرهم نثراً للشعر وتلميحا للأمثال، وتضمينا للحكم، ولا يضارعه في أكثر ذلك على ما أرى إلا البديع، وكان ابن العميد متفننا في فنون الكتابة، متفوقا في ضروب الرسائل، حتى شاعت فيه الكلمة المأثورة: " بُدئت الكتابة بعبد الحميد، وخُتمت بابن العميد ".

أما شعره فيغلب فيه الحسن ويرويه ماء الطبع؛ إلا أنه على الجملة أخف وزناً من نثره.

مختار من كلامه

قال من رسالته إلى ابن بلكا عند استعصائه على ركن الدولة:

كتابي وأنا مترجح بين طمع فيك ويأس منك، وإقبال عليك وإعراض عنك. فإنك تدل بسابق حرمة، وتمت بسالف خدمة، أيسرهما يوجب رعاية ويقتضي محافظة وعناية، ثم تشفعهما بحادث وخيانة، وتتبعها بأنف خلاف ومعصية: وأدنى ذلك يحبك أعمالك، ويمحق كل ما يرعى لك. ولا جرم أني وقفت بين ميل إليك، وميل عليك، أقدم رجلا لصدمك، وأؤخر أخرى عن قصدك، وأبسط يداً لاصطلامك واجتياحك، وأثنى ثانية لاستبقائك واستصلاحك؛ فقد يغرب العقل ثم يؤوب، ويعزب اللب ثم يثوب، ويذهب الحزم ثم يعود، ويفسد العزم ثم يصلح، ويضاع الرأي ثم يستدرك، ويسكر المرء ثم يصحو، ويكدر الماء ثم يصفو.

ومنها: وزعمت أنك في طرف من الطاعة بعد أن كنت متوسطها. وإذا كنت كذلك فقد عرفت حاليها، وحلبن شطريها؛ فنشدْتُك الله إلا ما صدقتني عما سألتك. كيف وجدت مازلت منه، وكيف تجد ما صرت إليه؟ ألم تكن من الأول في ظل ظليل، ونسيم عليل، وريح بليل، وهواء غذيّ، وماء رَوِيّ، ومهاد وطيّ، وكن كنين، ومكان مكين، وحصن حصين، وعززت به بعد الذلة،

وكثرت بعد القلة، وارتفعت بعد الضعة، وأيسرت بعد المعسرة، وأثريت بعد المتربة؟.. ففيم الآن أنت من الأمر؟ وما العوض عما عددت، والخلف مما وصفت؟ وما استفدت حين أخرجت من الطاعة نفسك، ونفضت منها كفك، وغمست في خلافها يدك؟ وما الذي أظلك بعد انحسار ظلها عنك؟ أظل ذو ثلاث شعب، لا ظليل ولا يغني من اللهب؟ قل نعم كذلك.

ومنها: تأمل حالك وقد بلغت هذا الفصل من كتابي فستنكرها. والمس جسدك وانظر هل يُحسُّ؟ واجسُسْ عرقك هل ينبض؟ وفتش ما حنا عليك هل تجد في عرضها قلبك؟ وهل حلى بصدرك أن تظفر بفوت سريح، أو موت مريح؟ ثم قس غائب أمرك بشاهده، وآخر شأنك بأوله.

ومن شعره قوله لبعض إخوانه:

قد ذبت غير حشاشة وذماء ... ما بين حر هوى وحر هواء
لا أستفيق من الغرام ولا أرى ... خلوا من الأشجان والبرحاء
وصروف أيام أقمن قيامتي ... بنوى الخليط وفرقة القرناء
وجفاء خل كنت أحسب أنه ... عوني على السراء والضراء
أبكي ويضحكه الفراق ولن ترى ... عجباً كحاضر ضحكة وبكائي

ومنها:

من يشف من داء بآخر مثله ... أثرت جوانحه من الأدواء
لا تغتنم إغضاءتي فلعلها ... كالعين تغضيها على الأقذاء
واستبق بعض حشاشي فلعلني ... يوماً أقبك بها من الأسواء
فلئن أرحت إلى عازب بلوتي ... ووجدت في نفسي نسيم عزاء
لأجهزن إليك قبح تشكر ... ولأنثرن عليك سوء ثناء
ولأعضلن مودتي من بعدها ... حتى أزوجها من الأكفاء

الصاحب بن عباد

(326 - 385 هـ)

نشأته وحياته

ولد كافي الكفاة أبو القاسم إسماعيل الصاحب بن عباد بطالقان من أعمال قزوين، ودرس علي ابن فارس اللغوي، واتصل بابن العميد شاباً فأخذ عنه؛ واشتدت صحبته له فلقب من أجل ذلك بالصاحب. وزر لمؤيد الدولة ابن بويه بعد أن قتل أبو الفتح ابن العميد[1] وزيره، فدبر أموره وسد ثغوره. ولما ملك فخر الدولة بعد أخيه استعفى الصاحب، فقال له: " لك في هذه الدولة من إرث الوزارة، ما لنا فيها من إرث الإمارة. فسبيل كل منا أن يحتفظ بحقه.

فاتسع سلطان الصاحب وعم إحسانه، وعرس للأدب جنانا ناضرة، وشار للعلم ربوعا عامرة. وقصد حضرته الأدباء والعلماء والمتكلمون والمصنفون يتعرضون لمنحه، ويتنافسون في مدحه، وهو يرشدهم بنقده، ويعينهم برفده، حتى ازدهر الأدب في عهد بني بويه بفضله ازدهاراً قل أن يصادفه في عهد آخر.

وكان للصاحب ولع بجمع الكتب وشغف بمطالعتها. وكان مجلسه لا يخلو من أديب يحاضر، ومتكلم يناظر، وناشئ يروي ويستفيد. وعاش الصاحب ما عاش مبجلا مفضلا نافذ الأمر مطاع الإشارة. فلما مات أغلقت له أبواب الري واجتمع الناس على باب قصره ينتظرون جنازته وفيهم فخر الدولة وقواده في خير ملابسهم. فلما خرج نعشه من الباب صاحوا بأجمعهم صيحة واحدة وقبلوا الأرض. ودفن بأصبهان.

نثره

سار الصاحب على نهج ابن العميد وأربى عليه في الحلية اللفظية ولاسيما في السجع والجناس، حتى قيل فيه: " لو رأى سجعة تنحل بموقعها عروة

---

(1) هو علي أبو الفتح ذو الكفايتين ابن العميد ابن أبي الفضل ابن العميد الذي تقدم ذكره. خلف أباه على الوزارة لركن ابن بويه حتى توفى فوزر لولده مؤيد الدولة فتغير عليه لبعض الأسباب فقتله.

الملك، ويضطرب بها حبل الدولة، لما هان عليه أن يتخلى عنها " ومنزلته بعد البديع وقبل الخوارزمي. وله ذوق سليم في صوغ الشعر ونظر صادق في نقده. ولم تعقه تكاليف الوزارة ولا مظاهر الإمارة عن التأليف، فصنف في اللغة كتاب المحيط في سبعة مجلدات، وكتاب الإمالة، والكشف عن مساوئ المتنبي، وغير ذلك: وأكبر فضله في تشجيع الأدباء وتنشيط العلماء وإذكاء شعلة الأدب.

نموذج من كلامه

كتب إلى القاضي أبي بشر الجرجاني حين وروده باب الري وافداً عليه:

تحدثت الركاب بسير أروى إلى بلد حططت به خيامي

فكدت أكير من شوق إليها بقادمة كقادمة الحمام

أحقٌّ ما قيل أمر القادم، أم ظنٌّ كأماني الحالم؟ لا والله بل هو درك العيان، وإنه ونيل المنى سيان. فمر أيها القاضي براحلتك ورحْلِك، بل أهلا بك وبكافة أهلك، ويا سرعة ما فاح نسيم مسراكَ ووجدنا ريح يوسف من رياك؟ فحث المطيّ تُزل غُلتي بسقياك، وتزح علتي بلقياك. وقص علي يوم الوصول لنجعله عيداً مشرفاً، ونتخذه موسماً ومعرفاً ورد الغلام، أسرع من رجع الكلام، فقد أمرته أن يطير على جناح نسر، وأن يترك الصبا في عقال وأسر.

سقى الله دارات مررت بأرضها فأدتك نحوي يا زياد ابن عامر

أصائل قرب أرتجى أن أنالها بلقياك قد زحزحن حر الهواجر

الخوارزمي

(303 – 383 هـ)

نشأته وحياته

هو أبو بكر محمد بن العباس الخوارزمي، أصل آبائه من طبرستان وولد بخوارزم، ثم فارقتها وهو فتيّ السن ابتغاء للعلم والتماساً للرزق، فجاب الأقطار وتقلب في خدمة كثير من الملوك والأمراء. ولقي سيف الدولة وخدمة بالشام ثم مضى على غلوائه في الاضطراب والاغتراب: فورد بخاري ونيسابور وسيجستان حتى وافى الصاحب ابن عباد بأصبهان، فأكرم مثواه بكتاب إلى عضد الدولة بشيراز فنجحت سفرته، وربحت تجارته، وصدر عنه بمال جم وخير كثير فاستوطن نيسابور واقتنى بها ضياعاً وعقاراً، وعاش قرير العين ناعم البال بين مجالس الدرس ومجالس الأنس حتى منى في آخر زمانه بمساجلة البديع الهمذاني ومناظرته. فانخذل انخذالا شديداً، ونالت منه هذه النكبة فاعتلت صحته، وخمدت شهرته، ولم يحل عليه الحول حتى علقه حماسه سنة ثلاث وثمانين وثلاثمائة.

منزلته في الأدب والكتابة

رُوي عن الخوارزمي ما رُوي عن أنداده من سرعة الحافظة وقوة الذاكرة وشهر بذلك حتى قيل: إنه قصد الصاحب ابن عباد بأرجان، فلما وقف ببابه ذهب الحاجب إلى الصاحب وقال. إن بالباب أديباً يستأذن في الدخول. فقال الوزير قل له: قد ألزمت نفسي ألا يدخل علي إلا أديب يحفظ عشرين ألف بيت من شعر العرب " فقال أبو بكر للحاجب: ارجع إليه وقل له: هذا القدر من شعر الرجال أم من شعر النساء؟ فلما أخبر بذلك الصاحب قال: هذا أبو بكر الخوارزمي!.

وكان الخوارزمي مع ذلك إماماً في اللغة والأنساب، عالماً بأشعار العرب وأخبارهم، واقفاً على أسرار وخواص التراكيب. وهو في النثر من طبقة ابن

العميد. وكثير من الناس يفضله على الصاحب. ولكنه يتخلف أحياناً فلا يحور إلى ذوق، ولا يرجع إلى سليقة. أما شعره فبين الرديء والجيد.

مختار من كلامه

من فصوله المختارة قوله: الرجال حصون يبنيها الإحسان، ويهدمها الحرمان، وتبلغ بثمرها البر واليسر، ويمحقها الجفاء والكبر. وإنه لا مال إلا برجال، ولا صلح إلا بعد قتال. والجبان مقتول بالخوف. قبل أن يقتل بالسيف، والشجاع حي وإن خانه العمر، وحاضر وإن غيبه القبر. ومن طلب المنية هربت منه كل الهرب، ومن هرب منها طلبته أشد الطلب. وقال:

أكبر من الأسير من أسره ثم اعتقه، وأشجع من الأسد من قيده ثم أطلقته. وأكرم من النبت الزكي من زرعه، وأكرم من الكريم من اصطنعه. لا صيد أعظم من إنسان، ولا شبكة أصيد من لسان، وشتان بين من اقتنص وحشياً بحبالته، وبين من اقتص إنسياً بمقالته!.

ومن أجود شعره قوله:

مضت الشبيبة والحبيبة فالتقى ... دمعان في الأجفان يزدحمان

ما أنصفتني الحادثات، رميننـي ... بمودعين وليس لي قلبان

وقوله:

قلت للعين حين شامت جمالا ... في وجوه كواذب الإيماض

لا يغرنك هذه الأوجه الغرُّ (م) ... فيا رُبّ حيةٍ في رياض

وقد ذم أحد خلفاء بني العباس قال:

ما لي رأيت بني العباس قد فتحوا ... من الكنى ومن الألقاب أبوابا؟

ولقبوا رجلا لو أولهم ... ما كان يرضى به للقصر بوابا

قل الدراهم في كفي خليفتنا ... هذا فأنفق في الأقوام ألقابا

وقال في الحكم:

لا تصحب الكسلان في حالاته كم صالح بفساد آخر يفسد
عدوى البليد إلى الجليد سريعة والجمر يوضع في الرماد فيخمد

وقال يرثي ركن الدولة:

ألست ترى السيف كيف انثلم وركن الخلافة كيف انهدم؟
طوى الحسن ابن بويه الردى أيدري الردى أي جيش هزم
فصيح اللسان بديع البيان رفيع اللسان سريع القلم
إذا تم شيء بدا نقصه توقع زوالا إذا قيل تم

بديع الزمان الهمذاني

(المتوفى سنة 398 هـ)

نشأته وحياته

أبو الفضل أحمد ابن الحسين ولد بهمذان ونشأ بها. وتعلم العلم باللغتين الفارسية والعربية، ولم يترك أدبياً في همذان إلا استنفد ما عنده. ثم غادرها إلى الصاحب ابن عباد فازداد من معارفه وعوارفه. وقصد جرجان فأقام في أكناف الإسماعيلية واختص بأبي سعيد محمد ابن منصور. وفي سنة 382 يمم نيسابور فتجلت فيها عبقريته، وذاعت بين الناس شهرته، وأملى بها أربعمائة مقامة. ثم تصدى لمناظرة أبي بكر الخوارزمي، وكان أسن منه وأشهر. وجرت بينهما مكاتبات أفضت إلى مناظرات. وغلب هذا قوم وذك آخرون. وساعد البديع شبابه ولسانه وحاجته إلى الظهور، فظهر على الخوارزمي ظهوراً أطال ذكره ورفع قدره عند الملوك والرؤساء. وأجاب قرنه داعي ربه، فخلا له الجو، وابتسم له الدهر، وتنقل في حواضر فارس منتجعاً أمراءها، حتى ألقى عصاه بهرات وصاهر أحد وجهائها وعلمائها، وعاش بها رخي البال متسق الحال إلى أن ناداه ربه فلباه سنة 398.

واختلف في موته فقيل مات مسموماً، وقيل مات بالسكتة وعجل بدفنه فأفاق في جدثه، وسمع صوت بالليل فنبشوا عليه فوجدوه قد مات قابضاً على لحيته من هول القبر.

أخلاقه ومواهبه

كان البديع مقبول الصورة، خفيف الروح، ناصع الظرف، ذكي القلب، قوي الحافظة. حدث التاريخ عنه أنه كان ينظر في أوراق من كتاب لم يعرفه نظرة واحدة ثم يؤدي ما فيها لا يخرم منه حرفاً. وأنه كان يقترح عليه إنشاء رسالة في معنى غريب فيخرج منها عفو الساعة والجواب عنها فيها. وربما ابتدأ بآخر سكر من الرسالة وانتهى بها إلى أولها فيخرجها بلفظ مرتبط ومعنى

متسق. وكان يترجم ما يقترح عليه من الشعر الفارسي إلى الشعر العربي فيجمع بين الإبداع والإسراع.

نثره وشعره

نثر البديع يستهوى القلوب ويملك الشعور، وكله من قبيل الشعر المنثور. وللصناعة تأثير فيه؛ إلا أنه مع ذلك جار مجرى الطبع، لم يفسده تكلف، ولم يبهمه تعمق. وقد جمع كلامه بين متانة اللفظ ورشاقة المعنى وجمال العبارة ودقة التخيل. وقد تصرف هذا الكاتب في فنون الترسل، وتفنن في ضروب الرسائل حتى كان بحق فارس الطريقة العميدية وابن بجدتها.

وله شعر رقيق لم يبلغ من الجودة مبلغ نثره، لأن الجمع بين حسن النظم وحسن النثر قلما يتفق لأحد.

مقاماته

المقامات [1] حكايات قصيرة تشتمل كل واحدة منها على حادثة لا تستغرق غالباً أكثر من مقامة (جلسة) وتنتهي بعظة أو ملحة. ولحسن الديباجة وأناقة الأسلوب فيها المحل الأول. والبديع أول من أجاد هذا النوع. والمظنون أنه حاكى بالمقامات الأحاديث الأربعين لابن دريد المتوفى سنة 310. وقد كتب أربعمائة مقامة في الكدية وغيرها، نحلها أبا الفتح الإسكندري على لسان عيسى ابن هشام. ولم يعثروا منها إلا على ثلاث وخمسين مقامة شرحها الأستاذ محمد عبده. أسلوبها طلي شهي، إلا أن قصر حكاياتها وتقارب الخيال فيها يبعدها عن الكمال. وللبديع غير المقامات ديوان رسائل ومجموعة شعر وكلاهما مطبوع.

مختار من كلامه

قال من رسالة: والله لولا يد تحت الحجر، وكبد تحت الخنجر، وطفل كفرخ يومين قد حبب إلى العيش، وسلب من رأسي الطيش، لشمخت بأنفي عن هذا المقام. ولكن صبراً جميلا والله المستعان.

---

(1) اقرأ ما كتبناه عن المقامات بعد ذلك في باب المقامات والقصص.

وقال من رسالة أخرى: وجدتك تعجب أن يجحد لئيم فضل صنيعك. فخفض عليك يرحمك الله! إن الذي تعجب منه يسير، في جنب ما يجحده من الناس كثير. إن الله خلق أقواماً وشق لهم أبصار وآتاهم بصائر، فغاصوا بها على عرق الذهب فقصدوه، ولم يزالوا بالنجم حتى رصدوه، واحتالوا للطائر فأنزلوه من جو السماء، ولحوت فأخرجوه من الماء، ثم جحدوا مع هذه الأفكار الغائصة والأذهان النافذة صانعهم: فقالوا أين وكيف؟ حتى رأوا السيف. فلم تعجب إن جحدوا فضلا ليست الأرض بساطه، ولا الجبال سماطه، ولاسيما فسطاطه، ولا الليل رباطه، ولا النهار صراطه، ولا النجوم أشراطه، ولا النار سياطه...؟

وكتب إلى بعض أصدقائه يحذره:

لعلك يا سيدي لم تسمع بيتي الناصح حيث قال:

اسمع نصيحة ناصح ... جمع النصيحة والمِقَة

إياك واحذر أن تكون ... من الثقات على ثقة

صدق والله وأجاد. فللثقات، خيانة في بعض الأوقات. هذه العين تريك السراب شراباً، وهذه الأذن تسمعك الخطأ صوباً، فلست بمعذور، إن وثقت بمحذور، وهذه حال السامع من أذنه، الواثق بعينه. وأرى فلاناً يكثر غشيانك وهو الدنيء دخلته، الرديء نحلته، السيئ وصلته، الخبيث جملته، وقد قاسمته في أزرك، وجعلته موضع سرك. فأرني موضع غلطك فيه، حتى أريك موضع تلافيه. أما أبعد غلطك من غلط إبراهيم عليه السلام! إنه رأى كوكباً، ورأيت توليا. وأبصر القمر، وأبصرت القدر. وغلط في الشمس، وغلطت في الرمس! أظاهره غرك، أم باطنه سرك؟.

ومن قوله في أبي القاسم ناصر الدولة:

غضي جفونك يا رياض ... فقد فتنت الحور غمزا

واقني حياتك يا رياح ... فقد كدرت الغصن هزا

وأرفق بجفنك يا غمام ... فقد خدشت الورد وخزا

خلـــع الربيـــع علـــى الربـــى وربوعهـــــا خـــــزا وبـــــزا
ومطارفـــــا قـــــد نقشـــــت فيهـــا يـــد الأمطـــار طـــرزا

ومنها:

وكـــــأن أمطـــــار الربيـــــع إلـــى نـــدى كفيـــك تعـــزى
يـــا أيهـــا الملـــك الـــذي بعســـاكر الآمـــال يغـــزى
خلقـــت يـــداك علـــى العـــدى ســـيفا وللعـــافين كنـــزا
لا زلـــت يـــا كنـــف الأميـــر لنـــا مـــن الأحـــداث حـــرزا

الحريري

(446 – 516 هـ)

نشأته وحياته

محمد القاسم بن علي البصري عربي صميم من بني حرام. ولد بقرية يقال بها المشان، ونشأ بالبصرة وتخرج على فضلائها. وكان في أول أمره يبيع الحرير أو يصنعه فلقب بالحريري. وصرفه عن ذلك شغفه بالعلم وولوعه بالأدب، فجد في الدرس والتحصيل حتى سمت منزلته واستطارت شهرته في وقوله على أساليب العرب وحفظه لأخبارهم وأشعارهم. فقربه الأمراء وأمه الأدباء يستفيدون من علمه ويستزيدون من أدبه.

صفاته وأخلاقه

كان الحريري دميما قصيراً بخيلا قذر الثوب مولعا بنتف لحيته عند التفكير. فعاضه الله من ذلك برائع أدبه، ورقيق ملحه، وسعة صدره، واعترافه بالحق لأهله. ولذلك كان الحديث عنه خبراً من النظر إليه. سمع بشهرته رجل غريب فجاءه بتلقي عنه الأدب، فلما رآه استزرى شكله، وفهم الحريري منه ذلك. فلما التمس منه أن يملى عليه قال له اكتب:

ما أنت أول سار غره قمر ورائد أعجبته خضرة الدمن

فاختر لنفسك غيري إنني رجل مثل المعيدي فاسمع بي ولا ترني

فخجل الرجل وانصرف.

نثره وشعره

الحريري كاتب مكثر وشاعر مقل كالبديع. وهو من ساقة أتباع ابن العميد ومن الممهدين لظهور الطريقة الفاضلية بالقصد إلى البديع، والمبالغة في الصنعة، والإفراط في تدبيج اللفظ، والتفريط في جانب المعنى، حتى تراءت معانيه من خلال ألفاظه عليلة ضئيلة كالعروس المسلولة جملوها بالأصباغ

وأثقلوها بالغلائل والحلي. وشعره كنثره في الكلف بالبديع والعناية باللفظ. وضع منه كثيراً في ثنايا المقامات وجمع في ديوان خاص.

مؤلفاته

له من المؤلفات كتاب درة الغواص في أوهام الخواص، انتقد فيه أهل عصره في خروجهم عن حدود العربية في بعض الألفاظ والتراكيب. وكتاب ملحة الإعراب في النحو، وديوان رسائل، ثم المقامات وهي أجود آثاره.

مقاماته

له خمسون مقامة نحلها أبا زيد السروجي على لسان ابن همام ونسجها على منوال البديع. جمع فيها من اللغة والأمثال والأحاجي ما لا غاية بعده. فهي ديوان ممتع للألفاظ العربية، والنوادر اللغوية؛ والصناعة اللفظية، ولعل ذلك هو السبب في عناية الأدباء من العرب والفرنج بها وانتشارها بينهم. فقد ترجمها أكثر من عشرين مستشرقا من الفرنسيين والألمان والإنجليز. وطبعت بالإنجليزية سنة 1263، ثم إلى التركية وطبعت بالآستانة. ولا تزال تدرس في بعض جامعات أوروبا بالشرح الذي وضعه لها رأس المستشرقين سلفستر دساسي سنة 1822.

عيوبها

ينتقدها أدباء الفرنج في قصرها، ووحدة مغزاها، وأن المؤلف لم يعن فيها بتصوير الحكايات على نحو ما ألفه الفرنج واليونان قديما، وإنما صرف همه إلى تحسين اللفظ وتزيينه. وأدباء العرب يقولون إنها تكاد لا تخرج عن خيال متكرر في صور مختلفة، وإن في إنشائها تكلفاً لا تسمح به طبيعة البدوي الذي قيلت على لسانه.

سبب وضعها

سبب وضع المقامات أن الحريري كان جالساً بمسجد بني حرام بالبصرة، فدخل المسجد شيخ ذو طمرين عليه أهبة السفر، رث الحال، فصيح المقال. فسأله الحاضرون: من أين الشيخ؟ فقال: من سروج. فاستخبروه عن كنيته، فقال

أبو زيد. فأنشأ الحريري المقامة الحرامية وعزاها إلى أبي زيد وجعل الراوي فيها الحارث ابن همام مريداً نفسه. أخذاً بالحديث المأثور: كلكم حارث وكلكم همام. واشتهرت تلك المقامة حتى بلغ خبرها شرف الدين وزير المسترشد بالله، فأعجب بها وأشار على الحريري أن يضم إليها سواها فأتمها خمسين.

مختار من كلامه

قال يشكر أحد الوزراء: دعاء العبد للوزير دامت جدوده سعيدة، وسعوده جديدة، وعلياؤه محسودة، وأعداؤه محصودة، دعاء من يتقرب بإصداره، على بعد داره، ويقصر عليه ساعاته، مع قصور مسعاته. وشكره للأنعام الذي أوصله إلى التجميل والتأميل، وجمع له بين التنويه والتنويل، شكر من أطلق من أسره، وأذيق طعم اليسر بعد عسره. ولو نهضت به القدمان، وأسعده عون الزمان، ولقد اعتمار الباب المعمور، وأسرع إليه إسراع العيد المأمور، ليؤدي بعض حقوق الإحسان، ويقرأ صحف الشكر باللسان. ولكن أني ينهض المقعد؟ ومن له بأن يصعد فيسعد؟.

ومن شعره في الحكم قوله:

لا تزر من تحب في كل شهر ... غير يوم ولا تزده عليه

فاجتلاء الهلال في الشهر يوم ... ثم لا تنظر العيون إليه

وقال أيضاً:

لا تقعدن على ضر ومسغبة ... لكي يقال عزيز النفس مصطبر

وانظر بعينيك هل أرض معطلة ... من النبات كأرض حفها الشجر؟

فعد عما تشير الأغبياء به ... فأي فصل لعود ما له ثمر؟

وارحل ركابك عن ربع ظمئت به ... إلى الجناب الذي يهمى به المطر

واستنزل الري من در السحاب فإن ... بلت يداك به فليهنك الظفر

القاضي الفاضل

(المتوفى سنة 695 هـ)

نشأته وحياته

ولد أبو علي عبد الرحيم البيساني بمدينة عسقلان من بلاد فلسطين، وأخذ العلم عن أبيه بهاء الدين علي قاضي عسقلان. ثم ورد مصر في أواخر الدولة الفاطمية ليتعلم الكتابة في الديوان، وذهب إلى الإسكندرية فدخل ديوان ابن حديد قاضيها. وما لبث أن ظهر فضله ودل عليه نبوغه، فقدم القاهرة وكتب في ديوان الظافر. ولما قامت الدولة الأيوبية استوزره صلاح الدين ابن أيوب فاس ملكه خير سياسة. ثم وزر من بعده لولده العزيز ثم لأخيه الملك الأفضل. وتوفى سنة 695 بالقاهرة.

منزلته في الكتابة

كان من طبيعة منصب القاضي الفاضل أن يخالط الكتاب في الأصقاع المختلفة ويقف على المذاهب الكتابية المتباينة في الشام والعراق ومصر. فجرته المحاكاة والمفاضلة وقوة الشخصية إلى استحداث طريقة جديدة بناها على أصول طريقة ابن العميد ومازها بالإغريق في التورية والجناس، حتى أصبحت الكتابة في عهده كما ذكرنا من قبل طلاء خداعا من زخرف اللفظ على هيكل بال من المعنى السقيم. بهرت هذه الطريقة العقيمة العيون الكليلة والقرائح الناضبة فاقتفاها عُباد الصنعة من أشباه الكتاب، وورطوا أنفسهم فيما لا غناء فيه ولا رجه منه. وظل هذا المذهب غاشياً على العيون، راثناً على القلوب، حتى عصرنا الحديث فزال على التدريج بتأثير ابن خلدون وتقليد الآداب الفرنجية.

نموذج من كلامه

كتب هذه الرسالة إلى صلاح الدين يشفع لخطيب عَيْذَاب في توليته خطابة الكرك وهي:

أدام الله السلطان الملك الناصر وثبّته، وتقبّل عمله بقبول صالح وأثبته، وأخذ عدوه قائلا أو بيته، وأرغم أنفه بسيفه وكبته.

خدمة المملوك هذه واردة على يد خطيب عيذاب. ولما نبا به المنزل عنها، وقل عليه المرفق منها، وسمع هذه الفتوحات التي طبق الأرض ذكرها، ووجب على أهلها شكرها، هاجر من هجير عيذاب وملحها، سارياً في ليلة أمل كلها نهار فلا يسأل عن صحبها. وقد رغب في خطبة الكرك وهو خطيب، وتوسل بالمملوك في هذا الملتمس وهو قريب، ونزع من مصر إلى الشام وعن عيذاب إلى الكرك وهذا عجيب. والفقر سائق عنيف، والمذكور عائل ضعيف، ولطف الله بالخلق بوجود مولانا لطيف، والسلام.